من المحيط إلى المحيط

هدأ الموج واطمأن ، فلا يصافح الشاطئ إلا لمساً ؛ وخفت صوته وسكن ، فلا يتحدث إلا همساً . . . وهو مع هذا جدير — إذا شاء — أن يزأر كالأسد ، وأن يندفع كالثور ولكنه أراد ، فى ذلك اليوم ، أن يكون — كاسمه — هادئاً ؛ كأنما علته كآبة لفراق هذه الوفود ، التى نزلت إلى جواره فترة من الزمن ؛ أو كأنما أطرق إطراق المفكر المهموم ، فهو اليوم واجم ساكن .

وقفنا — قبل الرحيل — نودّع ذلك المحيط « الهادئ » الذى طالما سمعنا بعظمته وضخامته ، فأخذت أعناقنا تشرئب وتستطيل ، كأنما أردنا أن ننظر إلى نهايته ، وأن نستوثق من أن له حقّـاً ذلك الطول الهائل ، وذلك العرض الواسع الفسيح . ولكن العين البشرية لم تستطع — على حرصها الشديد — أن تظفر منه إلا بنصيب ضئيل ؛ ولم يكن بد من أن نستعين بقوة الخيال ، لكى ندرك بها ما عجزت عنه قوة الإبصار .

ولم تمض ساعات حتى أخذت وفود الأمم تتأهب للرحيل ، بعضها متجه نحو الغرب ، مخترق هذا المحيط الهادئ الساكن ، الذى لم يزل يحف به الخوف ، وتغشاه أخطار الحرب . ولكن الكثرة العظمى من الوفود قصدت إلى الشرق ، بعضها المسرع العجل ، يركب الهواء . وبعضها المتريث المتمهل ، يركب واحداً من تلك القطارات الفخمة التى أعدتها حكومة أمريكا لضيوفها ، وزودتها بوسائل الراحة والتنعم ، التى امتنعت على الأمريكيين أنفسهم ، منذ قامت هذه الحرب الضروس .

وكان هنالك شخص واحد فقط من بين هذه الوفود ، رأى أن يشذ عن هذا الإجماع ، فلم يركب طائرة ولا قطاراً ، بل سوّلت له نفسه أن يسعى من المحيط الهادئ إلى المحيط الأطلسى ، وأن يخترق الولايات المتحدة على متن سيارة قديمة ، حائلة اللون ، كالحة الوجه ، طال عهدها بالماء والريت ، وعلتها غبرة الترك

الولايات المتحدة الأمريكية
مقياس الرسم
أميال
الطريق من المحيط الى المحيط
خليج المكسيك

والإهمال ، تصيَّدها — أو تصيدته — فى أحد الدكاكين الغربية ، وقد قيل له إنها سيارة عريقة فى الحسب والنسب ، تنتمى إلى عنصر فى السيارات سليم ، إلى محتد طيب كريم . فصدّق ما قيل له ، لأنه كان من المؤمنين المصدقين . ثم حانت منه نظرة إلى عجلها الذى تسير عليه — إذا سارت — فرآه جافاً أعجف ، قد براه الثرى ، وبرحت به النوى . فالتفت إلى صاحب الدكان مبتسما متسائلا . فتنحنح التاجر مليـًا ، ثم أكد له أنه عجل لا بأس به ، وأنه يدور مع السيارة إذا دارت ، ويسير معها إذا سارت ، وأن من أكبر مزايا هذه السيارة أن عجلاتها لا تنفجر إلا فى الوقت المناسب ، وفى المكان الملائم ، حيث يستطيع صاحبها بشىء من اللباقة أن يحصل على إطار جديد أو إطارين . ومهما يكن من شىء فإن المحسنين فى الولايات المتحدة كثيرون ، وستأخذهم الشفقة من غير شك على هذا المصرى الغريب ، الذى نأى من الأوطان فى طلب العلا ، وطوحت به الغربة حتى أسلمته إلى هذه الديار البعيدة ؛ وحسبك أن تقول لهم إنك عضو فى وفود الأمم المتحدة ، وأنك صافحت الرئيس ترومان ، حتى يفتح أمامك الباب المغلق ، ويحف بك الإكرام والإعظام .

بعد هذا الكلام المليح ، والبيان المؤثر الفصيح ، لم يبق أمام صاحبنا مجال للتردد والإحجام ، فلم يلبث لحظة ، حتى استخرج من جيبه ثلثمائة من الدنانير ، وقدمها إلى صاحب الدكان عن رضا وارتياح وعقدت الصفقة وقضى الأمر ، ولم يبق مجال للنكوص على الأعقاب . . . عند ذلك قال له التاجر ، وهو يبتسم ابتسامة عريضة ، بعد أن أصبحت الدنانير فى حرز حريز : « الآن لا بد لك أن تفكر جديا فى الوقود الذى يوصلك إلى الشاطئ الشرقى ؛ فإن أمامك ثلاثة آلاف من الأميال ، ستقطعها إن شاء الله فى مدة من الزمن تتراوح بين ستة وعشرة أيام ، وستنام فى الطريق فى فنادق خاصة أعدت لأمثالك من الغرباء . . ولكن لابد لك من الوقود ؛ لأن السيارات لا تمشى من غير وقود . والحكومة كما تعلم لا تعطى البنزين إلا بترخيص وبطاقات . ولابد لك من أن تجد وسيلة للحصول على هذا كله . ولا أظن أنك واجد مشقة فى الحصول عليه . « ألست كما تزعم عضواً فى وفود الأمم المتحدة ، وقد كنت مع الرئيس ترومان فى حفلة واحدة ؛ فمن ذا الذى يرد لك طلباً ؟ »

أنصت صاحبنا إلى هذا الكلام ، وعجب كيف نسى أمر الوقود ، وكيف

صمت التاجر عن ذلك حتى عقدت الصفقة ! حقا أن التجار لا يختلفون كثيراً مهما اختلفت ديارهم وأوطانهم . . ولـكن لا بد مما ليس منه بد ، فليبادر بالذهاب إلى إدارة التموين ، وليلتمس منها ما يلزمه من البنزين .

ودخل دار التموين على استحياء . وجعل يتحدث عما جاء من أجله بعبارات تتعثر ألفاظها ، وتختلط أفعالها بأسمائها . ورئيسة الدار تصغى إليه وهى تبتسم . ثم قالت إنها قد سمعته يخطب فى اجتماع كبير فى سان فرانسسكو، وأنه لا بأس عليه إن شاء الله ، وسيمنح من الوقود ما يريد بل فوق ما يريد . ثم لم تمض دقائق معدودة حتى كان بين يديه من البطاقات ما يكفى لأن يعبر به القارة الأمريكية والمحيط الذى يليها . .

* * *

قال التاجر : « ألم أقل لك إن كل باب مغلق سيفتح أمامك ، وسيظهر لك هذا الإكرام مرة أخرى حين تنفجر إطاراتك ، فتأتيك إطارات من كل صوب ! والآن لابد لك من التفكير فى الرفيق قبل الطريق . . . أليس من أمثالـكم يا بنى مصر :« خذ الرفيق قبل الطريق » ، مع أن بلادكم لا تزيد فى المساحة على واحدة من الولايات المتحدة ، وعددها كما تعلـم ثمان وأربعون ؟ إذن لابد لك من رفيق ، وإنى كما أتحفتك بسيارة نادرة ، بثمن بخس ، سأتحفك برفيق عظيم بثمن بخس أيضاً . . . لا تنس أن أمامك طريقاً طويلا يبلغ آلاف الأميال ، ولا أريد أن تضل فتشرّق حيث يجب أن تغرّب ، أو تصعد حيث يجب أن تهبط . ناهيك بأن القيادة الطويلة مضنية للجسم والعقـل ، ولابد لك من الاستجمام والراحة من آن لآن لـكى تتمتع بمناظر بلادنا العظيمة . والصديق الذى اخترته لمصاحبتك دمث الأخلاق ، كريم العنصر ، بارع فى قيادة السيارة ، يعرف طرق الولايات المتحدة معرفة الخبير ؛ فطالما ساق السيارات فى طول البلاد وعرضها ، وشمالها وجنوبها . . . وهو فوق ذلك لن يكلفك سوى خمسين ديناراً ، عدا نفقات السفر التى لا تتجاوز العشرة الدنانير »

ولم تمض دقائق على هذا الـكلام الوجيه حتى أقبل الرفيق وتم التعارف بين الطرفين . وكانت ملامحه لا تختلف كثيراً عن ملامح السيارة ، ولذلك لم يتردد صاحبنا فى اختياره ، وسلمه المفاتيح ، وتواعدا على اللقاء فى الساعة السابعة

من صباح اليوم التالى (اليوم الأول من شهر تموز) لكى تبدأ تلك الرحلة الطويله من شاطئ المحيط الهادى ، إلى شاطئ المحيط الأطلسى .

إن القارئ الذى يطالع هذه القصة ، ويتأمل كيف أقبل صديقنا على هذه المجازفة ، وهو لا يعرف من أمر السيارة ولا من أمر الرفيق شيئاً ، يحق له أن يتوقع أن أحداً من هؤلاء الثلاثة لن يستطيع الوصول إلى الشاطئ الشرقى ؛ بل لعلهم لن يبتعدوا عن المدينة الغربية بضعة أميال حتى يرتدوا على أعقابهم خاسرين . ومع ذلك فقد شاءت المقادير أن تبدأ الرحلة وأن تتم فى سبعة أيام ، وأن يكون الرفيق المجهول رملا عذب الحديث كريم النفس . وشاءت المقادير أيضاً أن تنفجر الإطارات الأربعة واحداً بعد واحد فى المكان الملائم ، وألا يجد أصحابنا مشقة كبيرة فى الحصول على إطار جديد ، بدلا من الإطار المنفجر ، وذلك بفضل ما أبدته إدارة التموين فى مختلف البلدان من الجود والكرم .

وهكذا أتيح لهذا العضو من وفد مصر فى مؤتمر الأمم المتحدة بسان فرانسسكو أن يخترق الولايات المتحدة من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق ، وأن يرقب عن كثب هذا العالم المترامى الأطراف ، المتعدد الصور والألوان ، الذى احتشدت فيه الشعوب وامتزجت فيه الأجناس والملل وتعددت فيه الشكول ، وتنوعت الطبائع والميول ، واجتمع الناس فيه من كل قطر وإقليم ، على اختلاف المذاهب والنزعات ، وتباين الاهواء والعادات ، ومع ذلك فد أمكن هذه الجموع المتباينة أن تؤلف أمة موحدة الأمر إلى مدى بعيد ، مجتمعة الرأى فى كل ما يعرض لها من الشؤون الجليلة ، وبين أبنائها من اسباب الوفاق والاتحاد أكثر مما بين أبناء البلاد التى يتفق سكانها فى الأشكال والألوان والجنس والدين .

هذا العالم الأمريكى مقسم إلى ثمان وأربعين ولاية ، لكل ولاية عصبية وكبرياء ، ونزعة فى الحياة تميزها عن غيرها من الولايات . ولكل منها استقلال تحرص عليه اشد الحرص ، ولا يجرؤ أحد أن يتعرض له بسوء وفى هذه الولايات عشرة ملايين من الزنوج السود ، وبضعة ملايين من الصفر الآسيويين ، وفيها عشرات الملايين من الأجانب الذين لم يولدوا أو لم يولد آباؤهم فى أرض أمريكا ، وفيها من المذاهب والديانات عدد عظيم ؛ بعضه منقول من العالم القديم ، وبعضه

طريف نبت فى التربة الأمريكية ازدهر فيها وترعرع . وصفوة القول إن فيها من وجوه الاختلاف والتباين، مايكفى بعضه للتفرقة بين الناس ، وإضعاف الوحدة القومية ، وخلق سلسلة لا تنتهى من المشاكل السياسية والاجتماعية تجعل تماسك الدولة أمراً عسيراً .

ولست أريد أن أزعم أن هذه الاختلافات لم تخلق للأمريكيين طائفة من المشاكل ليس من السهل حلها ، ولكن الذى لا شك فيه أنها لم تؤثر أثراً ذا شأن فى قوة تماسك الأمة ولا فى كيانها السياسى ، ولم تحل بينها وبين الاضطلاع بأكبر عبء منظم نهضت به دولة فى أى عصر من العصور .

وليس بالأمر الهين أن نتبين السبب أو الأسباب التى ترجع إليها قوة الدولة ، على الرغم مما بها من عوامل الاختلاف والتباين . وأكبر الظن أن هذا الاستقرار السياسى والاجتماعى فى الشعب الأمريكى يستند إلى دعامتين قويتين : إحداهما مادية ، والأخرى روحية . فالأولى هى اتساع مجال العمل ، ووفرة الأرزاق لمن شاء أن يجدّ فى طلبها ، وتعدد المرافق وتنوعها بحيث يستطيع كل إنسان أن يجد مجال الحياة الذى يلائمه . هذه هى الاعتبارات المادية التى يذكرها أكثر الكتّاب حين يتحدثون عما يسمونه « سر عظمة أمريكا » . ولكن هنالك أيضاً ناحية روحية لبناء الدولة الأمريكية ، ولعلها ليست أقل خطراً من الناحية المادية . ومن الممكن أن نستخلصها فى كلمة واحدة : الحرية ؛ فهى الدعامة الأساسية التى تمسك البناء كله . وهى التى حالت دون الاضطهاد ، وهى التى أفسحت المجال للفرد وللجماعات ، وهى التى مكنت لهذه العناصر المختلفة أن تعيش فى صعيد واحد ، وأن تكون أمة مجتمعة الرأى موحدة الكلمة .

ومن حق القارئ أن يعترض بأن ما لقيه ، أو ما يلقاه الزنوج فى أمريكا ، ليس مما يتفق مع الحرية . وهذا صحيح . ولكن بفضل الحرية أمكن للزنوج أن ينتقلوا من الولايات التى يضطهدون فيها إلى غيرها من الولايات ، وبفضل الحرية أخذت حياة الزنوج فى التحسن والتقدم حتى ارتقى منهم الكثير فى الحياة الاقتصادية والروحية . ولا يزال التحسن فى حالة الزنوج فى اطراد دائم . فاذا كان تقدمهم فى المستقبل على نسق تقدمهم فى الماضى ، فلا شك أن الفضل فى هذا يرجع إلى انتصار عقيدة الحرية على اللون والجنس ، وهما من أقوى العوامل الهدامة فى حياة الشعوب .

* * *

وبعد أترانى بعدت كثيراً عن موضوع هذا الحديث ، وهو وصف البلاد الأمريكية من غربها إلى شرقها ؟ لست أحسب أنى بعدت عن موضوعى كثيراً. لقد اخترق سائحنا المصرى فى رحلته المذكورة بضع عشرة ولاية ، وفى كل منها مثال حى لتلك الظاهرات التى تتألف منها حياة الشعب الأمريكى. لقد بدأت الرحلة من أقصى الولايات الغربية وهى ولاية كاليفورنيا ، عاصمتها سكرامنتو ، ومن مدنها سان فرانسسكو ، ولوس أنجليس ، وسان دييجو وهلم جرا. ولا أريد بتكرار هذه الأسماء أن أدل القارئ على مدن قد يعرفها أو لا يعرفها ، إنما أردت أن ألفت نظره إلى هــذه الأسماء الأسبانية الكثيرة المنتشرة فى كاليفورنيا ، وإلى الطابع الأسبانى القوى الذى اصطبغت به البلاد. لقد كان الأسبان أول من نزل بكاليفورنيا ، وأنشأ مدنها ، وأقام الحياة السياسية فيها. ولا شك أن فى السكان عنصراً أسبانيـًا تقرؤه بسهولة فى الملامح والتقاطيع. ولم يحاول الأمريكيون أن يزيلوا هذا الطابع الأسبانى بل استبقوه ولم يغيروا من أسماء المدن أو الأنهار أو القرى.

وفى سان فرانسسكو عدا الطابع الأسبانى حى صينى صرف ، جميع سكانه من أهل الصين بزيهم وملامحهم المعروفة ، وعلى أبواب الدكاكين كتابات صينية ، وتسمع فى جوانبه اللغة الصينية ، والاذاعات اللاسلكية باللغة الصينية. والغريب فى هذا أن سكان سان فرانسسكو يفتخرون بهذا الحى الصينى ، ويعدونه من أكبر مزايا مدينتهم ، ويقولون فى زهو إنه يمثل أعظم مدينة صينية خارج بلاد الصين الأصلية. وليس الحى الصينى هناك جزءاً نائياً من المدينه ، بل واقع فى قلبها وفى جزء ممتاز منها. ولهذا الأمر دلالته على روح التسامح التى تسود هذا الإقليم كله.

والآن تنازعنى نفسى لأن أقول إن ولاية كاليفورنيا هى أعظم الولايات المتحدة جميعاً ، وإن كان هنالك ولايات تفوقها فى المساحة أو الثروة أو عدد السكان. وذلك لما امتازت به من جمال الموقع وطيب الهواء ، وشموخ الجبال ، وروعة المياه الساقطة ، وضخامة الغابات الباسقة ، وتنوع الإنتاج الزراعى والصناعى. ولها فوق ذلك ساحل تطل جباله على المحيط الهادى. وهى بعد هذا

كله — أوقبل هذا كله — الولاية التى ازدهرت فيها صناعة السنما ، فأصبحت — سواء رضينا دلك أم كرهنا — أكبر مركز للنشر والتلقين والإفهام ؛ ولو شاءت لكانت عاصمة العالم فى التثقيف والتهذيب والإرشاد .

أقول تنازعنى النفس لأن أقول إن ولاية هذا شأنها جديرة أن تحتل المكان الأول بين الولايات جميعاً . ولكنى أخشى على نفسى — إن أنا قلت ذلك — أن تناصبنى العداء سبعٌ وأربعون ولاية متحدة ، كل منها ترى أنها ليس فى العالم أرض كأرضها ولا سماء كسمائها . والويل لمن قال غير هذا ، أو اجترأ أن يسرف فى تفضيل إحداها على الأخرى . ذلك أن الأمريكى الصحيح معجب بالولاية التى ينتمى إليها ، فخور بها وبكل ما يتصل بها ، بل هو أيضاً يرى بلدته أو القرية الضئيلة التى يعيش فيها أعظم بقاع العالم وأطيبها . ولعل هذه العصبية الإقليمية من أكبر مصادر القوة فى الولايات المتحدة الأمريكية .

لقد كنا نمر فى طريقنا بقرى صغيرة لا تتجاوز بضعة منازل ، وليس بها شارع سوى الطريق الرئيسى الذى نحن سائرون فيه . ومع ذلك ترى هذه القرية قد نصبت الأنوار الحمراء والخضراء وسط الطريق لتنظيم حركة مرور يوشك ألا يكون لها وجود . إن هذا الرضا عن الوطن الصغير أمر ترتاح له النفس ، وظاهرة من أفضل ما يتمناه المرء فى كل قطر من الأقطار .

* * *

بعد أن خرج سائحنا من ولاية كاليفورنيا ، دخل فى ولاية أريزونا ؛ وعلى الحدود بين الولايتين باب عظيم مكتوب عليه بحروف ضخمة : مرحباً بكم فى أريزونا . وفيما عدا هذا ليس هنالك ما يدلك على أنك خرجت من ولاية ودخلت فى أخرى . وأول شىء تلقاه حين تدخل أريزونا من الغرب صحراء فسيحة ، قد انتشر فيها العوسج والصبار ، والأشجار الشوكية الطويلة التى تنسب إلى يوشع . هذه النباتات الخشنة مبعثرة فى كل مكان لا يكاد جزء من الصحراء يخلو منها . والماء فيها قليل . والعمران مقصور على البقاع التى يستنبط منها البترول . ولكن أريزونا ليست كلها صحراء ، فقد دخل سائحنا قبل المساء إلى الطرف الشرقى من الصحراء ، وأخذت سيارته تصعد فى الجبال — التى يعرفها الناس باسم جبال

روكى — ومضت فى صعودها حتى مضى شطر من الليل ، ثم انتهت بعد ذلك إلى هضبة عالية ، كثيرة الغابات والزرع والعمران .

ولا بد لى هنا أن أقف قليلا لكى أصف للقارئ كيف يبيت عابر السبيل فى رحلة طويلة كالرحلة التى نحن بصددها . فإن سفراً يستغرق سبعة أيام لا بد أن يكون تدبير المبيت فيه من أهم الشؤون التى تشغل البال . ليس المبيت المفضل فى هذه الحال فندق من الفنادق فى إحدى المدن التى تمر بها . بل هنالك مساكن صغيرة أقيمت لمثل هؤلاء السائحين ، ويطلق عليها الناس اسم « مُوتل » ، وهى كلمة مشتقة من السيارة والفندق بلغة الإنجليز . وقد تسمى « ساحة » أو « فِناء » أو « كابينات » . وهى عبارة عن ساحة واسعة تحيط بها أكواخ من الخشب المتين ، وقد أعد كل كوخ لمبيت شخص أو اثنين . وقد توافرت فيه جميع وسائل الراحة . . وإلى جانب كل كوخ ظلة من الخشب تأوى تحتها السيارة . ومن عادة النازلين فى هذه المساكن أن يبكروا قبل شروق الشمس لكى يستأنفوا رحلتهم ؛ ولذلك يجمل بهم أن يدفعوا أجرة المسكن فى المساء السابق ، حتى يكونوا أحراراً يستيقظون متى شاءوا ، دون أن يزعجوا أصحاب المنزل . وربما كان لهذه السنّة الصالحة سبب آخر لا يقل وجاهة . فليس بمستبعد أن بعض النزلاء قد تغريهم المغريات ، فينهضوا فى ظلام الليل ، ويعضوا لطيتهم مستعجلين ، وبعض العجلة قد ينسيهم دفع ما عليهم من الدولارات . . صحيح أن رب المنزل قد استكتبهم أسماءهم وأرقام سياراتهم ، ولكن من الجائز أن يخطئ المرء أو يسهو — وجل من لا يسهو — فيعطى اسماً مختلفاً عن اسمه بعض الاختلاف ، ورقماً يختلف عن رقم سيارته بعض الاختلاف . . من أجل هذا كله كانت عادة الدفع قبل المبيت عادة مستحبة من جميع الوجوه .

ومن مزايا هذه المساكن أنها تقع دائماً وسط الريف . فإذا استيقظ النزلاء كان أول ما تقع عليه عيونهم مناظر الغابات والأنهار والجبال ، أو المروج الخضراء ، والمزارع اليانعة ؛ فجميع ما فيها يبعث على الانتعاش والانشراح . فيستأنف المسافر رحلة بعد رقاد هادئ ساكن ، وقد امتلأ قوة ونشاطاً ، وقد نسى متاعب الأمس ، واتخذ عدته لاستقبال يوم جديد ، وبذل مجهود آخر .

كان الطريق الذى اختاره صاحبنا هو أقصر الطرق من كاليفورنيا إلى نيويورك . وهو الطريق رقم ٦٦ ؛ وقد نظمت الطرق الرئيسية فى الولايات

لمتحدة بحيث يمتد كل طريق من أول القطر إلى آخره ، وليس له غير رقم واحد لا يتغير . وما على المسافر إلا أن يلتزم هـذا الرقم ولا يحيد ، وهو منقوش بوضوح على صُوًى من الحديد لا يخطئها المسافر . . ولهذه الأرقام نظام خاص . فالأعداد الفردية منها للطرق التى تتجه من الشمال إلى الجنوب ، والأعداد الزوجية للطرق التى تتجه من الشرق إلى الغرب .

ويخترق الطريق رقم ٦٦ طائفة من الولايات الغربية ، مثل أريزونا ونيومكسيكو وأوكلاهوما ، حيث تعيش جماعات من سكان أمريكا الأصليين الذين اشتهروا باسم « الهنود الحمر » . ولذلك كان من الجائز أن نسميه طريق الهنود . لا يفتأ المسافر يمر ببلدة أو قرية قد انتشروا فيها يعملون ويبيعون ويشترون . بعضهم لا يزال يعيش على فطرته الأولى ، وبعضهم قد امتزج بالبيض وشاركهم فى صناعاتهم وأعمالهم . وكثيراً ما يمر المرء بقرى هندية تتألف من أكواخ قليلة مبعثرة ، وهى منتشرة فى مساحات خصصت للهنود دون غيرهم . وليسوا على كل حال سوى قلة ضئيلة وسط سكان الولاية ؛ فان جميع هنود الولايات المتحدة لا يزيدون كثيراً على نصف مليون من الأنفس ، ولكنهم اليوم ينعمون فى رغد من العيش والأمن ، بعد أن زال عهد الاختلافات والاضطهاد . .

كان أصحابنا يقطعون الطريق فى رحلتهم بسرعة تزيد كثيراً على الخمسة والثلاثين ميلا ، التى فرضتها الدولة على سائقى السيارات محافظة على الإطارات واقتصاداً لها ؛ وكان من حسن الحظ أن لم يتعرض لهم بوليس الطريق إلا فى اليوم الرابع من رحلتهم ، وقد تجاوزوا مدينة أنديانا ، والطريق معبد ممهد ، يغرى بالسرعة ولعلهم زادوا على السبعين ميلا فى الساعة ، وإذا بذلك البوق الذى ألفنا سماعه فى السنما ، ينفخ فيه بشدة ، وتدرك أصحابنا سيارة البوليس ، فيتمهلون فى سيرهم ، ثم يقفون إطاعة لأوامر الدولة ونواهيها .

ويخرج من السيارة فتى صبوح الوجه ، غير عابس ولا باسم . فيقرئ أصحابنا السلام وينبئهم انهم مسرعون ، وهو الأمر الذى يعلمونه حق العلم . فيسكت صديقنا المصرى ولا ينبس ببنت شفة . ويرد رفيقه بأن « هذا السيد على موعد فى واشنطن فى اليوم السادس من تموز ، وقد تعطلنا فى الطريق من أجل الحصول على الإطارات ؛ وأنه لابد له بعد ذلك أن « يشحن » هذه السيارة إلى مصر ؛

قبل أن يغادر نيويورك عائداً إلى وطنه بالطائرة . وقد كان بالأمس عضواً فى وفد مصر فى مؤتمر الأمم المتحدة بسان فرانسيسكو . »

فى هذا الرد البليغ ثلاثة ألفاظ براقة مؤثرة : ميعاد فى واشنطن ، العودة إلى مصر ، مؤتمر سان فرانسيسكو . لم يكد الشرطى الكريم أن يستمع هذه الألفاظ حتى أبرقت أساريره ؛ فإن أقصى ما يتمناه أن يجد سبباً وجيهاً يمكنه من أن يطلق سراح أصحابنا ، بعد أن يدون هذه الحقائق الخطيرة فى دفتره ، حتى يستطيع أن يفحم بالحجة الدامغة من أراد مؤاخذته على معاملتهم بالرفق واللين .

لم يستغرق هذا الأمر كله دقيقة أو دقيقتين ، ثم مضوا فى طريقهم على بركة الله . ومن المصادفات الطيبة أن أصحابنا لم يكادوا يقطعون بضعة أميال بعد ذلك حتى انفجرت عجلة من عجلاتهم ، فلحق بهم ذلك الشرطى وساعدهم بما فى سيارته من عدة على تغيير إطار باطار ، ثم افترقوا وهم على أتم وفاق وصفاء .

* * *

لست فى حاجة لأن أسهب فى وصف كل مرحلة من هذه السياحة الممتعة ، وحسب القارئ أن يعلم أن من الممكن تقسيمها طبقاً للتقسيم الطبيعى للولايات المتحدة إلى ثلاثة أقسام ، الغربى والأوسط والشرقى . وفى الغرب جبال مترامية الأطراف ، تقطعها السيارة فى طرق تنحدر حيناً وتصعد حيناً ؛ وقد تتوسط الجبال الغربية هضاب فسيحة ، كأنها سهول واسعة ، مستوية السطح ؛ ولكن لا تلبث المرتفعات الشاهقة أن تظهر للعيون . ولا يزال الأمر كذلك حتى تدخل المرحلة الثانية وهى السهول الوسطى ذات التربة الخصبة والنبات الغزير ، والسكان الذين يرجع كثير منهم إلى أصل جرمانى . وفى هذا السهل الفسيح ترى الطرق معبدة سهلة ، والأنهار واسعة ضخمة . وقد عبرت السيارة نهر مسورى الشهير إلى جوار مدينة سان لويس . ويذكرنا هذا الاسم بالنفوذ الفرنسى الذى دخل القارة الأمريكية متتبعاً طريق نهر المسيسپى ، ولكن آثاره فيما عدا ذلك قليلة جدًّا . ولم يكن نهر مسورى فى ذلك الموضع ذا منظر شائق جذاب ؛ فقد أحدقت به المصانع والمداخن ، وشوهت شواطئه المعامل ، وعقد الدخان فوقه غطاء كثيفا ، وأزالت حسنه تلك الدور المزدحمة ذات المنظر الدميم .

وهكذا يمضى المسافر فى سهل أمريكا الأوسط حتى يبلغ الولايات الشرقية ،

فتصادفه الجبال مرة أخرى ، ولا يزال منطلقاً فى مسالكها الوعرة وطرقها الملتوية ، وسط المناظر الخلابة الساحرة ، حتى يبلغ الشاطىء الشرقى ، ويصل إلى واشنطن ونيويورك . وهذا الإقليم الشرقى ، سهلا كان أو جبلا ، هو موطن المهاجرين الأول . وأكثر سكانه من أصل بريطانى صميم ، ما عدا مدينة نيويورك ، التى لا تنتمى لصبغة واحدة أو أصل قائم بذاته ؛ ففيها من اليهود مليونان أو ثلاثة ، ومن الايطاليين والصقالبة عدد كبير ، ومن الزنوج مئات الآلاف . وفيها غير ذلك خليط من الناس والأجناس . وليس فى العالم مدينة كنيويورك ينتمى سكانها إلى أصول متعددة متنوعة . ومن الناس من يكتفى من أمريكا بزيارة هذه المدينة المختلطة ، تبهرهم شوارعها الطويلة ، وعماراتها الشاهقة ، وفنادقها الفخمة ، ولياليها الصاخبة ، فيعودون وفى رءوسهم عن أمريكا صورة بعيدة عن الحقيقة كل البعد

ليس من شك فى أن نيويورك مدينة عظيمة ، ومجال هائل للنشاط البشرى فى مختلف نواحيه . وقد استطاع سكانها أن يعملوا متعاونين على الرغم من تشعبهم واختلافهم . وفى هذا مظهر رائع لذلك النظام الأمريكى الذى وصفناه فى صدر هذا المقال . ولكن نيويورك على هذا ، ليست صورة مصغرة للولايات المتحدة ، وليست عاصمة لها إلا من الناحية التجارية فحسب . وإنما هى عالم صغير قائم بنفسه ، له خصائصه التى تميزه عن كل شىء سواه . وأكبر الظن أنه ليس فى الولايات المتحدة كلها مدينة تستطيع أن تقول عنها إنها تمثل الولايات المتحدة ، أو تمثل الحياة الأمريكية . ولكن هنالك مدن مثل بوسطن وفيلادلفيا وتشيكاجو نستطيع أن نصفها بأنها تمثل الروح التى تسود إقليما من الأقاليم . أما نيويورك فإننا لا نقدر أن ننعتها حتى بهذا النعت ؛ فحسبها أنها تمثل نفسها ، وتتكشف عن طابعها الخاص .

* * *

والآن وقد أبلغتنا مطيتنا ساحل المحيط الأطلسى فاننا لم نذبحها ولم نقل لها إشرقى بدم الوتين كما كان يقول الشعراء ، بل بادرنا بغسلها وتطهيرها ، وأودعناها سفينة تحملها إلى الديار المصرية العزيزة .

ومكثنا على شاطىء المحيط الأطلسى أياماً ، ننتظر الطائرة التى أقلتنا إلى أرض

الوطن . وليس فى مظهر هذا المحيط ما يجعله مختلفاً عن صاحبه الغربى . ولـكن الخيال البشرى كان يولد فى النفس شعوراً مختلفاً فى كل من الحالين . فلقد كان المحيط الهادى رهيباً غريباً ، لأنه ليس منا ولسنا منه . وهو يتجه غرباً إلى الشرق الأقصى . أما المحيط الأطلسى ، فهو محيطنا أو لنا فيه نصيب كبير . والبحر المتوسط شعبة منه ، أو جزء منه . بل نحن لا ندرى أيهما الأصل وأيهما الفرع . ولعل الأصدق أن نقول إن المحيط الأطلسى هو وليد البحر المتوسط ، فهو الذى كشف عنه الغطاء ، وأظهره للعالم وللحضارة . وشعوب البحر المتوسط هى التى وضعت أسس المدنية والعمران ، التى كان من آثارها اجتياز المحيط الأطلسى ، وتعمير القارة الأمريكية .

وسواء أكان المحيط الأطلسى ابناً أو أباً لبحرنا ، فإنه على كل حال قوى الصلة بنا ، قريب من قلوبنا وعقولنا . فلم نكد نلمس سواحله حتى أحسسنا بأننا من وطننا قاب قوسين أو أدنى ، وأخذنا نسمع فى خرير أمواجه أصوات عالمنا القديم ، الذى نشتاق إليه ونرى أنه — على ما به من نقص — هو أطيب بقاع العالم طرا ، وأخفها ظلا ، وأعذبها ماء ، وأصفاها هواء . ولم نلبث أن طرنا إليه على طائرة قوية من الصلب والحديد ، وفى القلوب طائرات من الشوق والحنين ، أكثر مضاءاً وأقوى جناحا .

محمد عوض محمد